

تأملات في النخلة والمرطب

د. جمال المقدسي الدويك



لم يذكر الله - سبحانه وتعالى - شجرة في القرآن، كما ذكر النخل والنخيل، فهي أكثر شجرة ورد ذكرها في القرآن الكريم؛ فقد ورد ذكرها في عشرين موضعاً من القرآن الكريم. ولقد فصلها الله دائماً عن المفاكهة والزروع والأعشاب، فجعلها دائماً في كفة، وبقيّة الزروع والأعشاب والمفاكهة في كفة أخرى، إذ خصها دون غيرها بالذكر. فتأملوا معي هذه الآيات العظيمة، إذ جعل النخل في كفة، والزروع في كفة:

قال تعالى: (وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ) (141) الأنعام. وقال تعالى: (وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلَعَتْ مِنْهَا مَضِيبٌ) (148) الشعراء.

وتأملوا معي أيضاً هذه الآية التي جعل الله فيها النخل في كفة والمفاكهة في كفة أخرى.

قال تعالى: (فِيهَا فَالْكِدَّةُ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْمَكِّمِ) (11) الرحمن.

وتأملوا معي هذه الآيات أيضاً حيث جعل الله تعالى فيها النخل في كفة، والأعشاب كلها في كفة أخرى: (فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ) (19) المؤمنون.

وقال أيضاً: (وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ) (34) يس.

وقال تعالى أيضاً: (وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا) (67) النحل.

ومن هنا ندرك لماذا جعل رب العالمين للنخيل في كفة وحب الحصيد في كفة أخرى في قوله تعالى: (وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ) (10، 9) سورة ق.

فماذا نستطيع أن نستنتج عندما يعطف الله النخل تارة على كل الزروع، وتارة أخرى على كل أنواع المفاكهة، وتارة ثالثة على كل الأنواع من الأعشاب، وتارة على كل أنواع الحبوب بما تحويه من غذاء كامل متكامل.

فلا شك أنها من جنس كل هذه الأنواع التي عطفها الله تعالى عليها، ولما شك أنها بذلك تكون شجرة مركزية عظيمة، فيها من الصفات والخصائص والفوائد والمنافع ما يجعلها مهيمنة على كل الأشجار إلّا قليلاً. فالنخلة تتصف بخاصية عظيمة رائعة مذهلة، قد يستغرب الكثيرون منها، فهي بالرغم من قوتها وطولها وشباتها، وتعميرها وشدتها، إلّا أنها رقيقة القلب، لينة، معطاء، مرهفة الإحساس، مطيعة لله خاضعة له، وقد يتساءل البعض: هل للشجرة قلب؟ وهل لها إحساس؟ وهل هي لينة حنون عطوف محبة؟ أقول:

فهذه الصفات تشبه صفات الإنسان المسلم، فهو قوي ثابت في إيمانه واعتقاده الراسخ، وهو شديد على الكفار والمنافقين وخليط عليهم، ولكنه رقيق القلب، لين العريكة، رحيم عطوف، معطاء، رقيق الإحساس، مفعم بالمشاعر. وهذا هو وصف رب العالمين تعالى لصفات المسلمين إذ يقول عنهم: (أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ) (54) المائدة.

وقال تعالى أيضاً واصفاً سيد المسلمين، وسيد الأنام - عليه الصلاة والسلام - ومن معه: (مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ)

العضلية والمتشابكة مع بعضها مثل الشبكة، وتقلص هذه الألياف المتشابكة بهذا الشكل تحتوي بين عيونها الأوعية الدموية الدقيقة النازفة، الأمر الذي يؤدي إلى ضغط الألياف والمتشابكة على هذه الأوعية النازفة، مما يؤدي إلى إيقاف النزف تدريجيًا.

ولما يتوقف تأثير هرمون الأوكسيتوسين على ذلك، فالرحم الذي تمدد خلال تسعة شهور من الحمل ليستوعب ما مجموعه اثني عشر كيلو جراماً من وزن الجنين والمشيمة والسوائل الملحقة بهما، يجب أن يعود إلى حجمه الطبيعي، والذي يعادل حجم حبة الكمثرى، ولما يكون ذلك إما بانقباض ألياف الرحم التدريجي المتتالي تحت تأثير هرمون الأوكسيتوسين، والأكسيتوسين فقط.

ولما يقتصر تأثير هذا الهرمون على الرحم فقط، بل يتجاوزه ليقلص
الثدي، الأمر الذي يؤدي إلى إدرار الحليب عند تقلص هذه القنوات
أيضاً الألياف العضلية الظهارية المحيطة بقنوات الحليب في
وما تحتويه من حليب، ومن ثم إكمال عملية الرضاعة عند
الطفل.

وهذه الخصائص المهمة جداً لكل من الحامل والمرأة التي تلد، وللمنفساء والمرضع، والتي يحتويها هرمون الأوكسيتوسين، تفسّر عظمة التمر والرطب الذي يحتوي في تركيبه على مادة شبيهة جداً

بهرمون الأوكسيتوسين من حيث تأثيرها، وتفسّر لماذا جعل الله تعالى غذاء السيدة مريم العذراء، الرطب فقط من الغذاء، إذ قال

نسيها... فنسأله من تحتها الماء حنّين قد جعل رطباً تحتك سرياً* ووزى إليك بحدود

النخل له تساقط عليك رطباً جنياً* فكلّلى واشربى وقرى عينا...

(مريم -23-26).

فإذا عرفنا أن لهرمون الأوكسيتوسين الموجود في الرطب والمتمر كل هذه الخصائص عند النساء، فهل هو موجود عند الرجال في أجسامهم؟ ولماذا؟

اكتشف العلماء أن هرمون الأوكسيتوسين له تأثير عظيم عند الرجال، فهو المسؤول عن رقة القلب والحنان والعطف والمحبة والإحساس المرهف ولين المعركة والطبع، وإرهاق الفؤاد، ورقته وطيبته ولينه لدى الرجال، وهو المسؤول عن الحنان والعطف اللذين يظهرهما الرجل تجاه أطفاله، وهو نفسه يولد مشاعر مشابهة لدى المرأة، فهل يوجد أحن من المرأة في اللحظة التي ترضع فيها ولدها؟ وهل يوجد أرق من قلبها في الساعة التي تمسك بوليدها لترضعه؟ أليست هذه هي اللحظة التي يتم فيها إفراز هرمون الأوكسيتوسين ليفرز الحليب جنباً إلى جنب مع الحنان والمحبة والعطف والحنو والرقّة التي تُكِنُّها الأم لرضيعها، ألم يُشِرِ الرسول - صلى الله عليه وسلم - إلى أن هذه هي أعظم صورة للحنان، عندما قال عن المرضعة: (أترون هذه المرأة ملقية ولدها في النار

أَلَمْ يَقُلْ رَبِّ الْعِزَّةِ عَنْ أَهْوَالِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَنَّهَا تَذْهَلُ أَقْوَى عَاطِفَةً، أَقْوَى حَزَانٍ، وَأَقْوَى حُبِّ بَيْنِ الْمَرْضِعِ وَوَلِيدِهَا: (يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مَرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ (2) الْحَجَّ.

هذا الحُزَنُ والرقة والعطف والمُلين الذي يحمله هَرَمون الأوكسيتوسين للأجسام التي يسري فيها، هو الذي يفسر لماذا بكى جَدع النخلة لما ترك الرسول - صلى الله عليه وسلم - الماعتماد عليه، وهو يُخطب الجمعة، ولم يهدأ روعه إلّا عندما عاد إليه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وحضنه وضمه إلى صدره، حتى سَكَنَ كما يَسْكُنُ الطفل.

وهذا الذي يفسر نظام الإسلام في إحياء القلب، وبعث الرقة وهذا ما يفسر الخشوع التام والدموع السخية والقلب اللين ويفطر ويتسحر على التمر والمربط، كما هي السنّة، وكما فعل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فإن جزءاً من هذا المليون عائد الأوكسيتوسين بخصائصه المليئة للقلب والمرققة للفرّاء، فعن سلمان - قال: (إذا أفطر أحدكم فليفطر على تمر، فإن لم يجد فليفطر على ماء فإنه طهور

وقد قال - صلى الله عليه وسلم: (نعم سحور المؤمن التمر)

فما أعظم أن نتلقى هذا المهرمون العظيم، المملين للقلب والفؤاد، والمثير للعاطفة والحزان، والموجود طبيعيًا وليس صناعيًا (أي

لم يطرأ عليه تغيير في خلق الله) في التمر، أن ذأكله فطوراً وسحوراً في شهر الرحمة والغفران، شهر رمضان.

وليس الأوكسيتوسين هو الهرمون الوحيد الموجود في التمر والرطب، فقد اكتُشف وجود مواد أخرى تشبه في تركيبها ووظيفتها هرمون الأستروجين إلى حد كبير، فما أهمية هذا الهرمون؟

في الحقيقة أن هذا الهرمون هرمون عظيم، وله وظائف متعددة ومتنوعة كبيرة وعظيمة، يكاد لا يخلو أي مكان في الجسم من وظيفة الأستروجين، من حيث إن له تأثيراً في وظائف العظام، والثدي، والجلد، وعلى قناة الرحم فالوب، وعلى الهرمون الحاث للجراب FSH، وله دور على الهرمون الصانع للجسم الأصفر (LH) في المبيض، وإن نقصه يؤدي إلى هشاشة العظام، هذا وإن الأستروجين له تأثير على توازن الأيونات والأملاح في الجسم، وعلى دورة بطانة الرحم (الدورة الطمثية)، وعلى توزيع الدهون في الجسم، ومن ثم تحديد شكل الجسم الخارجي، وعلى توزيع الإشعار، وعلى إفراز هرمون الأنسولين.

كما أن للأستروجين تأثيراً على الدورة الطمثية، وعلى سن اليأس من المحيط، وله دور أثناء الحمل، ودور في صناعة النطاف عند الرجال، ودور داخل الخلايا، كما أن للأستروجين دور في صناعة الكوليسترول في الجسم ونقله، كما أن له تأثيرات استقلابية متعددة، وله تأثير في تقلص الرحم أيضاً... إلخ.

وفي الحقيقة - وكما قلنا - فإنه له تأثيرات كثيرة وعديدة ومتنوعة، ولكننا مع ذلك لن نتحدث عن كل هذه الخصائص الفريدة، بل إننا سنتناول ناحية إيجازية عظيمة، أتت بها الذي لا ينطق عن الهوى - صلى الله عليه وسلم.

ذلك أن لهرمون الأستروجين تأثيراً على تطور الدماغ والجهاز العصبي المركزي، وذلك أثناء الحياة الجنينية لكل من الذكر والأنثى (وَأَنَّهُ خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى * مِنْ نَظْفَةٍ إِذَا تُمْنَى (45، 46) النجم، وأن هذا الاختلاف في الدماغ بين الجنسين في الحياة الجنينية وفي السنة الأولى من العمر، ناجم في جزء كبير منه عن اختلاف نسبة هرمون الأستروجين بين جسم الذكر وجسم الأنثى، وأن اختلاف نسبة التركيز هذه يؤدي إلى اختلاف التركيب، ومن ثم اختلاف سلوك الإناث عن سلوك الذكور، خاصة ما يحدثه الأستروجين من تأثير على الجهاز اللمبي (الطرفي) في الدماغ SYSTEM LIMBIC، وما لهذا الجهاز من تأثير على سلوك الإنسان، وبالتالي اختلاف سلوك الذكر عن سلوك الأنثى.

ومن الاختلافات التشريحية الموجودة بين دماغي الذكر والأنثى، أن الذكر لديه نصف كرة مخي متطور في الناحية اليمنى بشكل أكبر، أما عند الأنثى فإن الجسم الجاسئ الذي يربط بين نصفي الكرة المخية يكون عندها أكبر، كما أن الملتقى الأمامي يكون عندها أكبر أيضاً، والاتصالات بين نصفي الكرة المخية تكون عند الأنثى أكثر، وليس هذا هو كل شيء، فهناك اختلاف في تركيب المهاد وتحت المهاد بين الذكر والأنثى، وكذلك في الجهاز اللمبي - كما سبق وأسلمنا.

ومن هنا فإننا نقول: علينا ألا ننسى الكميات الجيدة من هرمون الأستروجين الموجودة في التمر، ولما ننسى أن تناول المرضع للتمر يؤدي إلى أن يطرغ التمر بجزء من محتوياته وبتركيز ضئيل جداً في حليب الإرضاع الذي يأخذه الطفل الرضيع، وفي الحقيقة فإن الطفل المولود لا يحتاج إلى أكثر من هذه الكميات الضئيلة من الأستروجين والموجودة في حليب الإرضاع، وذلك من أجل تطور واكتمال نمو جهازه العصبي، وتذكروا ما في التمر من هرمونات مثل الأوكسيتوسين والأستروجين وتأثيرهما على الجهاز العصبي عند كلا الجنسين. □

ولعل هذا أيضاً هو ما يفسر لماذا كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يُحَنِّك المولود بتمر عند ولادته، فقد روى البخاري في كتاب العقيدة عن أبي موسى - رضي الله عنه - قال: ولد لي غلام فأتيت به النبي - صلى الله عليه وسلم - فسماه إبراهيم فحنكه بتمر، ودعا له بالبركة ودفعه إليّ، ولعل في التحنيك أيضاً هدف آخر ألا وهو التعقيم والتطهير للضم والجوف والجهاز الهضمي، إذ ثبت أن في التمر مضادات حيوية طبيعية تصل في قوتها إلى قوة البنسلينات والستربتومايسين، والله تعالى أعلم.

والتمر ليس فقط مخزن لهذه الهرمونات، بل إنه يحتوي على عنصرين نادرين غاية في الأهمية، ألا وهما المغنيسيوم الذي يعرف باسم (المهدئ)، والمنجنيز والذي يعرف باسم (عنصر الحب)

أما المغنيسيوم فقد عرف باسم المهدئ، وحاز هذا اللقب بجدارته، لأنه وجد أنه يعمل على تهدئة الجهاز العصبي ومنع توتره

وهيأجه، كما أن له تأثيراً مليناً على المفاصل والأربطة، إذ وجد أنه يزيد من المرونة والمليونة والتلين في كل من الأعصاب المحيطية، والعضلات، والأربطة والمفاصل، والأوتار العضلية، والأنسجة المحيطية، كما أنه يؤثر على الغدد الموجودة في الجسم بما فيها الغدد الصماء التي تفرز الهرمونات، وما لهذه الهرمونات من تأثير مهيم مركزي، ودور قيادي رائد في الجسم، وعلى نفسية الإنسان كما رأينا، ولكي نتخيل مدى تأثير الهرمونات على نفسية الإنسان - ذكر اضطراب نفسية المرأة، وما يعترئها من ضيق وهم وغم وكمد واضطراب في نفسيته عندما تكون في فترة الدورة الشهرية، بسبب ما يعترئ هذه الدورة الشهرية من اضطراب هرموني كبير.

كما أن عنصر المغنيسيوم الموجود في التمر مفيد جداً لقيام الأعصاب بعملية إفراز النواقل العصبية عند نهاياتها، والتي لها دور كبير أيضاً في التأثير على نفسية الإنسان ومن ثم تحديد سلوكه، إذ ثبت - بما لا يدع مجالاً للشك - أنه يحدث اضطراب في هذه النواقل العصبية لدى المصابين بكافة أنواع الأمراض النفسية صغیرها وكبیرها، مما يوحي بدورها على نفسية الإنسان وسلوكه.

والمغنيسيوم مفيد أيضاً للأغشية المخاطية والمصلية في الجسم.

وقد عرف المغنيسيوم باسم المهدئ لأن نقصه في الجسم يؤدي إلى زيادة عمل الجهاز العصبي بشكل متهيج، وإلى الأرق وصعوبة النوم، والعشى، كما أنه يؤدي إلى ضعف شديد في الذاكرة، والنسيان المزمن، ويؤدي نقصه أيضاً إلى آلام في الأعصاب المحيطية واحتقان في الأعصاب، وإلى مزاج عصبي حاد، وآلام مختلفة في الجسم، إضافة إلى صداع متكررة، وتصلب في العضلات والأوتار والأربطة العضلية والمفصالية.

ولما ننسى إضافة إلى دور المغنيسيوم المهدئ في الجهاز العصبي، فهو ضروري أيضاً من أجل سلامة العظام والأسنان، كما أنه يسرع في نمو الخلايا، ويزيد مرونة الأنسجة، ويعادل بتأثيره القلوي السموم الحمضية، وهو ضروري جداً من أجل عمل الدماغ والمرئتين، كما أنه خافض طبيعي للحرارة ومرطب طبيعي.

وإذا عرفنا الخواص الرائعة لهذا المهدئ العظيم، أدركنا الحالة التي تكون بها المرأة بعد الولادة من إنهاك للعضلات نتيجة كثرة الشد، وتوتر الأربطة والمفاصل، إضافة إلى الضغط النفسي والعصبي والعقلي، والآلام العضلية والعصبية وما يتبع ذلك من تعرق وإجهاد عنيفين، فما أحوج الجسم في هذه اللحظات إلى عنصر عظيم مثل عنصر المغنيسيوم يقوم بإنهاء كافة هذه التوترات على مستوى كافة الأجهزة والغدد، وبما حبذا لو كان بكمية كبيرة، وبصورة سهلة الامتصاص جداً، وهي الصورة المثالية التي يوجد فيها المغنيسيوم في التمر، وهذا ما يفسر قول الله تعالى لمريم بعد مخاضها وولادتها: (وَقَرِي عِيَا).

وهذه هي الصورة كاملة (وَهَٰذَا إِلَٰهِيَّابِجْذَعَالنَّخْلَةِ شَسَقِطْعَلَيَّكَرُطْبًا جَنِيًّا * فَكُلِّي وَاشْرَبِي وَقَرِي عِيَا) (25، 26) مريم. بعد أن أرشدنا إلى تناول الرطب الذي يتساقط عليها من النخلة.

أما عنصر المنجنيز الموجود في الرطب والتمر بوفرة كبيرة، فلن يتسع المجال لذكر كل وظائفه وتأثيراته في الجسم، ولكني سأذكر بعض وظائفه التي أثبتها العلم، وأهمها وظيفة الحب (فهو يعرف باسم عنصر الحب)، وذلك لأنه وجد أن نقص هذا العنصر عند حيوانات التجربة يؤدي لإهمالها لأولادها، وإلى عدم الاهتمام بهم وبرعايتهم أو إرضاعهم، مع عدم الاهتمام بأي شأن من شؤونهم، وفقدان كل مظهر من مظاهر الحب بين الحيوانات وأولادها، وقد أظهرت الدراسة أيضاً أن حرمان الفئران من المنجنيز في غذائها أدى إلى تحولها إلى فئران عدوانية تجاه صغارها، إذ بدأت تهاجمها لتأكلها.

هذا ويعتبر التمر منجماً كاملاً من المعادن، وأهم المعادن التي يحتويها التمر، الحديد، ولما تنسوا أن حليب الأم فقير بالحديد الذي ينفذ من مخازنه بعد الشهر الرابع من الولادة، ويصاب الطفل بفقر دم بنقص الحديد عند عدم تعويض الحديد له بالغذاء، والافتقار بحليب الرضاعة الفقير بالحديد، ولذلك فإني أنصح بضرورة إدخال التمر ومنقوعه للطفل الوليد اعتباراً من الشهر الرابع، مع ضرورة دهن جسمه بزيت الزيتون بشكل دوري.